المرأة الكنعانية

بقلم المعلم الانطاكي الشماس

اسبيرو جبور

في 6 شباط 2011 تُليَ فصلٌ من إنجيل القديس متى يتعلّق بإمرأةٍ كنعانية. وردَت القصة في إنجيلَي متى ومرقص ولكن مرقص يعطي توضيحات إيضافية ويقول إن هذه المرأة هي من صور لأن يسوع كان في بيتٍ في صور، ويقول إنها يونانية أي لغتُها هي يونانية، وإنها كنعانية سورية فينيقيّة أي من مقاطعة رومانية إسمها سوريا الفينيقيَّة تمتدُّ من منطقة حيفا بفلسطين الى شمالِ بيروت. كان يسوع في بيتٍ وخرج، وكانت إبنة هذه المرأة الكنعانية ممسوسة بشيطانٍ يُعذّبها جداً. فسَعَت وراء يسوع تصرخ يا يسوع يا إبنَ داود إرحمني.

فكلامُها يا إبنَ داود ذو دلالة كبيرة. لم يُجِبها يسوع فإنزعجَ التلاميذ فقالوا ليسوع إصرفِها لأنها تصرخ في إثرِنا فقال لهم " لم أُرسَل إلا الى الخراف الضّالة من بني إسرائيل". طبعاً رسالة يسوع الأولى هي

للشعب اليهودي لأن هذا الشعب هو صاحبُ كتابٍ مقدّس يُبشِّر بمجيء المسيح. فهم أحقُّ الناس بالبشارةِ أولاً.

وصَلت الكنعانية الى يسوع وجثَت وطلبَت منه أن يُغيثَها، فقال لها يسوع " ليس حسناً أن يؤخذَ خبزُ البنين ويُلقى لصغار الكلاب".

إستعمل يسوع عبارةً يهودية تحقيرية لأن اليهود يحتقرون كل أمم الأرض ويُسمُّوهم بالعبرانية "غوييم" وهي شتيمة كبيرة تعني حيوانات. ما زال اليهود يستعملون هذه العبارة في فلسطين حتى اليوم. اليهود هم عِرقيّون منغلقون على كلِّ أُممِ الأرض.

أجابَته المرأة "ولكنّ الكلاب تأكل من الفتات الذي يتساقط من موائدِ أربابها". لم تَعثُر المرأة، بل رضِيَت أن تكونَ كلبةً عند يسوع لها حقٌّ في الفُتات إن لم يكن لها حقٌّ في الخبز. والخبزُ هنا في كلام يسوع هو خاصٌ باليهود. فهي ترتضي بهذا الفُتات، لذلك قال لها يسوع " يا إمرأةٌ عظيمٌ هو إيمانُكِ" . هذا صحيح.

بدلاً من أن تنفر من يسوع، إزدادت إيماناً. أصائلُ الخير تُرفع لها الحواجز وتُعلى شيئاً فشيئاً لتقفز من فوقِها، فالأصائلُ تنجح في القفز أمّا غير الأصائل فلا تنجح. هذه المرأة إنسانٌ أصيلٌ جداً، قفزت من

فوق هذا الحاجز المرتفع جداً بنجاحٍ كبير. لم يقُل يسوع لأحد " عظيمٌ إيمانُكَ" إلا لهذه المرأة الوثنيّة الأصل.

"فليكن لكِ ما أردتِ". صار الاله يُنفِّذ إرادة هذه المرأة.

لم يسأل عن إيمانِها ولا عن ثقتِها بيسوع، لم يقل لها شُفيَت إبنتُكِ، بل قال لها "فليكن لكِ ما أردتِ" أي أن الله له المجد ينحني لإرادة القدّيسين العِظام. هذا الإنحناء العظيم كبيرٌ جداً.

في الرسالة الى العبرانيّين عن العهد القديم : "زلزَلَ السماوات ونَزَل".

نعم هذه المرأة الكنعانية زلزلت السماوات، فتنازل الربُّ يسوع لإرادتها فشُفيَت إبنتُها من تلك الساعة .

شفى الرب يسوع عبداً لقائد المئة في كفرناحوم كان قد قال له " قلْ كلمة فقط فيبرأ عبدي، لا أستحق أن تدخل تحت سقف بيتي" فقال الرب يسوع " لم أجد مثل هذا الإيمان حتى في إسرائيل ". وهذا كان رومانياً وثنياً.

امّا الكنعانية القديمة من صِرفَت صيدا، فقد قال يسوع لأهالي الناصرة أنه كان في إسرائيل أرامل كثيرات في أيام ايليّا النبي فلم يُرسَل الى واحدةٍ منهُنّ بل أُرسِلَ الى أرملةِ صِرفتِ صيدا التي تقع بين صور

وصيدا. كان فيها في أواسط القرن التاسع قبل الميلاد، أرملةٌ ذاتُ إبنٍ وحيد. وقعت المجاعة و لم يكن لديها ما تأكُل سوى مدٍّ من الطحين، فوصل ايليّا الآتي من منطقة الحدود السورية الأردنية الآن ليزورها بناءً على أمرٍ الهي. فقالت له ليس لديِّ سوى مدٍّ من الطحين، سأخبزه لآكل انا وإبني ونموت. ماذا عن هذه الأرملة في ذلك الحين التي تموت ووحيدها جوعاً وهي قادرةٌ أن تسرِق لتأكل، فتتصرّف كما تصرّف داوود الذي أكل خبزَ التقدمة حين جاع هو ومَن معه بينما لا يجوز أكلُه إلا الكهنة. فللضرورةِ أحكام. و لم تستعطِ لئلا يُسيءَ الناسُ اليها، و لم تنزل عن كرامتَها وعِفّته. فضّلت أن تموت وإبنَها شريفةً طاهرةً عفيفةً بريئةً ذات أخلاقٍ عالية.

الكنعانية التي كانت من صور، والمرأة من صِرفت صيدا، وكريستينا الشهيدة العظيمة من صور، هؤلاء النساء الثلاث شرّفنَ لبنان والساحل اللبناني في الأجيال القديمة واستحقَقنَ مديحاً في الإنجيل وفي حياة القدّيسين، وهنّ نماذج لكلِّ النساء المسيحيّات وليس فقط للُّبنانيات. ولكن، يحقُّ للُّبنانيات أن يفتَخِرنَ بطهارة وشجاعة وقداسة نساء من هذا النوع الرفيع جداً. الأفضل اذن للنساءِ في لبنان

أن يقتدَين بهذه النساء وأن يرفضنَ المبتَكرات الخارجية. فتقليدُنا في الشرف والعفّة والطهارة والقداسة أفضلُ من ذلك.

إمتدحَ يسوع إمرأتَين لبنانيّتَين بمديحٍ عجيب غريب. أرملةُ صِرفت صيدا لا مثيلَ لها من أرامل إسرائيل، وإسرائيل تفتخر بأنها صاحبة الكتاب المقدّس بينما هذه هي وثنيّة. وصور تفتخر بالكنعانية التي إمتدحَها يسوع مديحاً لم يلفَظهُ في حقِّ أحدٍ سواها لا من الرجال ولا من النساء. فهل تتعلّم صبايانا ونساؤنا في لبنان من هذه النماذج أن يجعلنَ القداسة هدفهُنَّ ليكنَّ في هذا المستوى التاريخي العظيم، ولنكمِّل تقاليدَنا الأصيلة في هذه البلاد التي داسَتها أقدامُ الرُسل؟

في الفصل الثامن من أعمال الرسل بعد إغتيال القديس استفانوس بالرجم، لم يبقى في القدس سوى الرُسل والباقون هاجروا الى سواحِلنا يُبشِّرون فيها بالربِّ يسوع. هذه السواحل التي داسَتها أقدامُ القدّيسين هي جديرةٌ اذن لكلِّ إحترامٍ كما عبِّر عن ذلك الجنرال ديغول في مذّكراته.

بلادُنا تقدَّست بأقدام الرسل والقدّيسين. فهل نحن اليوم مستعدّون تماماً لنُعيد هذا التاريخ المجيد العظيم؟ أمَا إنطلق المبشِّرون من شواطئنا

يُبشِّرون الدنيا كلّها؟ Aimé Puech صاحب كتابٍ من ثلاثة أجزاء في تاريخ الآداب المسيحية اليونانية، ذكرَ في الجزء الأول أننا أرسلنا خيرةَ رجالِنا الى تبشير العالم، ففرغت بلادُنا حيناً من الرجالات.

ولكن كان لنا في التاريخ هذا المديح العظيم وهو أَننا بشّرنا العالم بالمسيح، حَملنا المسيح على أَكتافِنا ونادَينا به في كلِّ زمان. أَعادَ الله المسيح الى شواطئنا لنرى بين نسائنا وبناتِنا نماذج لا تُحصى للكنعانية الجديدة والكنعانية القديمة وللقديسة كريستينا. وجعلَ الله رجالَنا مشابهين للرجال الذين إنطلقوا من شواطئنا يحملون المسيح معهم الى كلِّ مكان. نحن أرضُ القدِّيسين، فعلينا أن نحافظ على كرامتِنا وتراثِنا.

فيا ربّنا يسوع المسيح يا مَن زُرتَ صيدا وصور والبقاع وقدّستَ هذه البلاد بزيارتِكَ المقدّسة، أرسِل ملائكَتَكَ القدِّيسين وجميع مختاريكَ من الملائكة والقدِّيسين ليحفظوا هذه البلاد في القداسةِ التامَّة، في السجود والعبادة، في الإيمان والرجاء والمحبة، في الصبر وطول الأَناة، في التآخي، في الوفاء والصدق والإستقامة والشفافية، لمجد إسمكَ القدوس آمين.